قيمة الأوطان وأهميتها في القرآن الكريم

دراسة تفسيرية موضوعية

إعداد الدكتور

تامر أحمد خضر

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر – مصر

قيمة الأوطان وأهميتها في القرآن الكريم

" دراسة تفسيرية موضوعية "

تامر أحمد حامد خضر
قسم أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني :Tamerkhedr1037.el@azhar.edu.eg

الملخص :

دفعني لهذا البحث ما أراه الآن في واقعنا المعاصر من تهكم وتطاول على الأوطان من بعض أبنائه، الذين لا يحرّكهم إلا مصالح شخصية، وأيدولوجيات غير وطنيّة، تُفضي إلى تمزيق الوطن، فتتبعت آيات القرآن الكريم– المتعلقة بالموضوع – وقمت بتفسيرها من خلال المنهج –الوصفي التحليلي– فأوضحت معانيها، وأزلت مُشكلها، وتوصلت إلى اهتمام القرآن الكريم اهتمامًا بالغًا بالوطن، وأنّ الوطن في حياة الأنبياء كان في مقدمة أولوياتهم، وأن القرآن الكريم لم يفرّق بين أبناء الوطن الواحد في الحقوق والواجبات، مكانة مصر من خلال قصة سيدنا موسى عليه السلام.

الكلمات المفتاحية : قيمة ، وطن، القرآن، حياة ، الأنبياء.

The value and importance of homelands in the Holy Qur'an

Tamer Ahmed Hamed Khadr

Department of Fundamentals of Religion, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys in Cairo, Al-Azhar University, Egypt.

E-mail:Tamerkhedr1037.el@azhar.edu.eg.

Abstract:

I was prompted to this research by what I see now in our contemporary reality of sarcasm and attacks on the homelands by some of its people, who are motivated only by personal interests and non-national ideologies that lead to the tearing apart of the homeland. So I followed the verses of the Holy Qur'an - related to the subject - and interpreted them through the method. - Descriptive Analytical - I clarified their meanings, removed their problem, and concluded that the Holy Qur'an pays great attention to the homeland, and that the homeland in the lives of the prophets was at the forefront of their priorities, and that the Holy Qur'an did not differentiate between the people of one homeland in terms of rights and duties, and the status of Egypt through the story of our Master Moses upon him. peace.

key words: Value,Homeland ,The Qur'an Life ,The Prophets.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدًا لمن أنعم علينا بالقرآن، وأكرمنا بالأمن والأمان، وهدانا لنعمة الإسلام، وخصنا بلغة خير الأنام–سيدنا محمد–خير ولد عدنان–صلى الله عليه– وعلى آله وصحبه وسلم، أمّا بعد:

فإنّ القرآن الكريم هو الدستور الخالد، والبيانُ الواضح الذي لا يعتريه ريب، ولا ينقضه غيب، ولا يحجب فصاحته وبلاغته جهل أو تعمد زيف أو ريب، وإنّ من أجلّ نعم الله على الإنسان أن كرّمه بالسكن والمأوى، وحباه بالأهل والوطن، فمنذ الولادة وحتى الوفاة نجد أن الوطن هو الحاضن للإنسان، مع اختلاف نوعه، ودينه، ومعتقده، وغناه أو فقره، ولقيمة الوطن وأهميته أشار القرآن الكريم في كثير من آياته، ببديع لغته، وعلوّ إعجازه وبيانه إلى قيمة الوطن ومكانته في الإسلام، لذا يجب على كل فرد من أفراد الوطن أن يعمل جاهدا من أجل رفعة وطنه والحفاظ عليه، وهذه القيمة عبّر عنها القرآن الكريم في كثير من الآيات، بدلالاته اللغوية، وتعبيراته البيانية، وأساليبه المعجزة ، لا سيما في سياق قصص الحق المبين.

سبب اختياري لهذا الموضوع:

١– دفعني لاختيار هذا الموضوع، ما أراه الآن في مجتمعاتنا العربية، وواقعنا المعاصر من تهكم وتطاول على الأوطان من بعض أبنائه، الذين لا يحرّكهم إلا مصالحهم الشخصية، ونزعاتهم الطائفية، وخلفياتهم العِرقيّة، مع أيدولوجيات غير وطنيّة، تُفضي إلى تمزيق الوطن، وتفريغ مقدراته، ونهب ثرواته وخيراته.

٢– شرف مصاحبة كتاب الله –تعالى– لإخراج بحثٍ تفسيريّ يُبرز قيمة الوطن في القرآن الكريم؛ ليخدم المكتبة التفسيرية خاصةً، والإسلامية عامةً.

٣– الرد على جماعات التكفير والتطرف التي تقف –جامدةً –على ظواهر نصوص القرآن الكريم؛ إذ تسعى لتمزيق الأوطان إلى جماعات وفرق شتى، ولا

تبالي بأهمية الأوطان ووحدتها، بل يزعمون-زورا وبهتانا- أن الوطن والوطنية لا وجود لهما في القرآن.

منهجي في البحث:

- تتبعت آيات القرآن الكريم-المتعلقة بالموضوع- وقمت بتفسيرها من خلال المنهج -الوصفي التحليلي- فأوضحت معانيها، وأزلت مُشكلها، وأنزلتها منزلها من الخصوص أو العموم، والإطلاق أو التقييد، وفق قواعد التفسير.
- قمت بشرح الآيات وبيان موضع الاستشهاد بها على المعنى المراد، مع الاستشهاد ببعض الأحاديث والآثار المتعلقة بالموضوع.
- استخلاص النتائج، والفوائد من الآيات والنصوص.

الدراسات السابقة:

١- دعوة القرآن للتعاون والترابط بين أفراد الأمّة وأثره في تعزيز الوحدة الوطنية للباحثة/ فاطمة عبدالله صالح، مجلة الجمعية المصرية للدراسات السردية عام٢٠١٣م.

٢- الوطن في القرآن والسنة للباحث/ طالب محمد موسى ثابت ،مجلة كلية الآداب، طرابلس، عدد:٢١، عام٢٠١٢م.

٣- مفهوم الوطنية وأهم مرتكزاتها، للباحث/عز الدين أحمد نمر، مجلة جامعة الجوف، كلية الشريعة والقانون، عام٢٠١٦م.

٤- توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، للباحث/عبد الصمد أحمد شريفي، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، السعودية، عام٢٠١٦م.

وبالنظر في هذه الأبحاث وجدت أنها تختلف عن موضوع بحثي من ناحية الموضوع والجوهر، لأن هذه الأبحاث تعالج مشكلات غير محل الدراسة التي

تناولتها في هذا البحث؛ إذ جعلت محل دراستي بياناً لقيمة الأوطان في حياة الأنبياء والسابقين من خلال آيات القرآن الكريم.

أهميّة البحث:

تكمن أهميّة هذا البحث في موضوعه؛ لأنه يناقش قضية العصر، قضية البحث عن الذات–الوطن– من خلال القرآن الكريم وإشارات مفرداته، وأسلوبه وبيانه، ففي هذه الآونة علت أصوات من يتحدث باسم الدين، ويرفع راية الإسلام وينادي بهدم الأوطان، لتحقيق أحلام زائفة، وبث الفرقة والخلاف والفتنة –باسم الدين الإسلامي بين أبناء الوطن، ويأتون من ظواهر النصوص القرآنية ما يلبّسون به على العامة كذبا ما يدّعونه من افتراءات تعمل على هدم الأوطان، وافتراق الأمة.

مشكلات البحث:

١–هل اهتم القرآن الكريم بالأوطان؟

٢–هل كان للوطن أهمية في حياة الأنبياء والمرسلين؟

٣–ما الواجب علينا تجاه الأوطان من خلال آيات القرآن الكريم؟

الكلمات الافتتاحية:

قيمة – وطن– القرآن– حياة – الأنبياء.

خطة البحث:

جاء هذا البحث مشتملاً على: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أمّا المقدمة فذكرت فيها: سبب اختياري للموضوع، منهجي في البحث، الدراسات السابقة، أهمية البحث ومشكلاته، الكلمات الافتتاحية، وخطة البحث.

المبحث الأول: تمهيدي بعنوان: الوطن في اللغة والقرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الوطن في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: الألفاظ ذات الصلة بلفظ الوطن في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الوطن في حياة الأنبياء والصحابة.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الوطن في حياة سيدنا إبراهيم –عليه السلام–.

المطلب الثاني: الوطن في حياة سيدنا موسى –عليه السلام– وقومه.

المطلب الثالث: الوطن في حياة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

المطلب الرابع: الوطن في حياة الصحابة –رضوان الله عليهم–.

المبحث الثالث: واجبنا نحو الأوطان من خلال آيات القرآن الكريم.

خامسا: الخاتمة وفيها:

١– النتائج، والتوصيات.

٢– المصادر والمراجع.

٣– فهرس الموضوعات.

المبحث الأول

الوطن في اللغة والقرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

الوطن في اللغة والاصطلاح

الوطن في اللغة: قال ابن فارس:"(الواو والطاء والنون) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ، فَالْوطن: مَحَلُّ الْإِنْسَانِ، ويُقال: أَوْطَنْتُ الْأَرْضَ: أي: اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا"(١).

وجاء في لسان العرب: الوطن: المَنْزِل تُقِيم بِهِ، وَهُوَ مَوْطِنُ الإِنسان، وَمَحَلُّهُ، فالوطن –لفظ– يُعبر عن مكان المولد، والمسكن، يُقال: وَطَنَ بِالْمَكَانِ، وأَوْطَنَ: أَقام، ويقال: أوطن فلان في أرض كذا: أي اتخذها وطنًا وسكنًا يُقيم فيه، ومنه قول القائل:

أَوْطَنْتُ وَطْناً لَمْ يَكُنْ مِنْ وَطَنِي ... لَوْ لَمْ تَكُنْ عاملَها لَمْ أَسْكُنِ

كَيْما تَرَى أَهلُ العِراق أَنني ... أَوْطَنْتُ أَرضاً لَمْ تَكُنْ مِنْ وَطَنِي(٢)

فدلالة اللفظ لغويا تشير إلى أن الوطن يشمل: محل الولادة والسكن–الأصلي– للفرد، ويُطلق على ما يعيش الفرد فيه ويتخذه محلاً وسكنًا–ولو لم يكن موطنه الأصلي–، وبذلك يتسع مفهوم الوطن بين موطنه الأصلي– موطن الآباء والأجداد، وموطن السكن ولو لم يكن الموطن الأم للفرد.

الوطن اصطلاحا:

قال الجرجاني: الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه، **ووطن الإقامة:** موضع يُنوى أن يُستَقِرَّ فيه خمسة عشر يومًا أو أكثر، من غير أن يتخذه مسكنًا(٣).

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس:١٢٠/٦.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٥١/١٣، وتاج العروس للزبيدي:٢٦١/٣٦، والبيت منسوب لرؤبة بن العجاج التميمي البصري المتوفي:١٤٥هـ، وبالرجوع لديوانه لم أجده ولكن نسبه له ابن منظور.

(٣) التعريفات:٢٥٣/١.

وهنا يُشير الجرجاني إلى أن **الوطن نوعان:** الأول: الوطن الأصلي، والثاني: وطن الإقامة، وهو قريب من المعنى اللغوي، إلا أنه حدد الإقامة بمدة معينة، وجعل الموطن الأصلي يشمل: موطن المولد، وموطن السكن.

وإلى هذا التقسيم أشار الفقهاء فقالو: يَنْقَسِمُ الْوَطَنُ إِلَى: وَطَنٍ أَصْلِيٍّ، وَوَطَنِ إِقَامَةٍ، وَوَطَنِ سُكْنَى(١).

– **فالوطن الأصلي:** هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْإِنْسَانُ، سَوَاءٌ أَكَانَ مَوْطِنَ وِلَادَتِهِ أَمْ بَلْدَةً أُخْرَى.

– **ووطن الإقامة فهو:** المكان الذي يقصد الإنسان أن يقيم به مدة قاطعة لحكم السفر فأكثر على نية أن يسافر بعد ذلك.

– **ووطن السُكْنَى فهو:** المكان الذي يقصد الإنسان المُقام به أقل من المدة القاطعة للسفر(٢).

وعليه يمكن تعريف الوطن اصطلاحا بأنه: موطن ولادة الفرد، أو مسكنه، أو مقر إقامته مدة من الزمن.

وبذلك يشمل التعريف الوطن بمعناه: **الحقيقي، والمجازي؛** لأنّ مدة الإقامة في مكان معين فترة قصيرة تسمى: **وطناً مجازا لا على سبيل الحقيقة؛** لأنه ربما يكون في موطن الحرب، وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم في قوله سبحانه: { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ}(٣)، فالمراد: مواطن الحرب ومواضعه، وليس المراد الوطن الأصلي الحقيقي، بل استُخدم اللفظ –مجازا– لمن مَكَثَ مدّة قصيرة في مكان أو موضع، وليس وطناً حقيقيًا، بل هو تعبير مجازيّ.

---

(١) المبسوط للسرخسي:٢٥٣/١.

(٢) قال السرخسي في المبسوط: وَطَنُ قَرَارٍ وَيُسَمَّى الْوَطَنُ الْأَصْلِيُّ وَهُوَ: أَنَّهُ إذَا نَشَأَ ببَلْدَةٍ أَوْ تَأَهَّلَ بِهَا تَوَطَّنَ بِهَا، وَوَطَنٌ مُسْتَعَارٌ وَهُوَ أَنْ يَنْوِيَ الْمُسَافِرُ الْمَقَامَ فِي مَوْضِعٍ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ وَوَطَنُ سُكْنَى وَهُوَ أَنْ يَنْوِيَ الْمُسَافِرُ الْمُقَامَ فِي مَوْضِعٍ أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ. ينظر: المبسوط للسرخسي: ٢٥٢/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق:٢١٤/١، والموسوعة الفقهية الكويتية: ٢٦٧/٢٧.

(٣) سورة التوبة: من الآية:٢٥.

المطلب الثاني

الألفاظ ذات الصلة بلفظ الوطن في القرآن الكريم

بالنظر في كتاب الله –تعالى– نجد أن القرآن الكريم اهتم بالأوطان اهتمامًا كبيرًا، إلا أن اللفظ لم يرد صراحة في القرآن الكريم، وإنما ورد بصيغة الجمع، إشارة إلى الوطن بالمعنى المجازي– موطن الحرب– فقال سبحانه:{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ}(١)، قال ابن عاشور:" وَالْمَوْطِنُ أَصْلُهُ مَكَانُ التَّوَطُّنِ، أَيِ الْإِقَامَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَقَامِ الْحَرْبِ وَمَوْقِفِهَا"(٢).

إنما ورد ذكر الوطن بألفاظ عديدة، ومتنوعة، وكلّها تدل دلالة واضحة على معنى الوطن، ويمكن إجمال ما ورد في القرآن من الدلالة على معنى الوطن في القرآن الكريم بأسلوبين: **أسلوب الدّلالة، وأسلوب الإشارة.**

أولا: الأسلوب الدِّلاليّ: بالتصريح بلفظٍ دالٍ على معنى الوطن.

وقد جاء الحديث عن الوطن به في كثير من آيات القرآن الكريم، بعبارات متعددة تدل على أهميّة الوطن وقيمته، ومدى تعلّق الإنسان بوطنه، ومشقة بعده عن موئله وموطنه، فورد بألفاظ منها:

– **لفظ: "الدار" ومشتقاته:**[الديار، ديارنا، ديارهم، دارهم، وداره، داركم](٣)، وقد ورد هذا اللفظ في كتاب الله –في مواضع كثيرة– تدل على معنى الوطن حقيقة، قال سبحانه في حق الصحابة–رضوان الله عليهم– حينما أخرجوا من ديارهم بغير حق:{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}(٤)، وقال سبحانه:{ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

(١) سورة البقرة:٢٥.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥٥/١٠.
(٣) وقد ورد اللفظ في ثمانية عشر موضعا، كلها تدل على الوطن.
(٤) سورة الحشر:٨.

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[١]، وقال سبحانه:{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}[٢]، فهذه الآيات تدل على شدة معاناة الصحابة بسبب بعدهم عن وطنهم وأهليهم؛ لذا أعدّ الله لهم الفوز العظيم؛ لعِظَمِ ما لاقوه من تعب ونصب؛ بسبب ترك الوطن ظلمًا وعدوانًا.

- **كذا ورد لفظ: "الأرض" والمراد الوطن**، ومنه قوله تعالى في حق سيدنا موسى عليه السلام على لسان فرعون:{ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}[٣]، وقال السحرة مثله في قوله سبحانه:{ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا}[٤]، وجاء في حق أنبياء الله بأن قال لهم المكذبون على سبيل التهديد والتوعد لهم إن لم يعودوا إلى ملتهم:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}[٥].

- **كذا ورد لفظ: "البلد" ويراد به الوطن، قال سبحانه:{** وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}[٦]، وقال سبحانه:{ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}[٧]، والمراد مكة، زادها الله تعظيمًا وتشريفًا.

- **كذا ورد لفظ: "القرية"** مُراداً بها الوطن، وكثيرا ما وقع هذا لأنبياء الله وأتباعهم، وكان الصدّ والعنت والإخراج من الأرض هو ما يلقونه من أقوامهم، فقوم لوط قالوا:{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}[٨]، وقوم شعيب –عليه السلام– ما أجابوه إلا بالصدّ والتهديد بالإخراج

(١) سورة آل عمران:١٩٥.
(٢) سورة الحج:٤٠
(٣) سورة الشعراء:١١٠
(٤) سورة طه:٦٣.
(٥) سورة إبراهيم:١٣.
(٦) سورة إبراهيم:٣٥.
(٧) سورة التين:٣.
(٨) سورة الأعراف:٨٢.

من الوطن، قال سبحانه:{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}(١)، فما من نبيّ بُعث إلا كانت عاقبته التهجير والاضطهاد من وطنه غالبًا.

ثانيا: الأسلوب الإشاريّ: بأن يُشير إلى معنى الوطن دون التصريح باللفظ.

كما بيّن الأسلوب الدِّلالي في كتاب الله قيمة الوطن ومكانته؛ كذا جاء الأُسلوب الإشاريُّ ليدلّ على الأهميّة نفسها، وهنا تكمن قيمة اللغة العربية وسرّها التعبيريّ؛ من خلال الإعجاز اللّغويّ للمعاني والألفاظ، والإشارات والعبارات، فقد أشارت اللّغة إلى هذا المعنى في قوله سبحانه:{ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ}(٢)، والمتأمّل في هذه الآية يجد كمال التشريف والتكريم للنبيّ – صلى الله عليه وسلم–، ولمّا لم يرد ذكر مكان الخروج –البلد، أو الوطن– في سياق الآيات، وهو المكان الذي أُخرج منه– مكّة–؛ ففيه من التشريف والتكريم لسيدنا رسول الله–صلى الله عليه وسلم–؛ لأن عدم ذكر خروجه من موطنه فيه إشارة إلى أنه خرج من مكة مُكرهًا على الخروج، وسيعود إليها منتصرا فاتحا مُكرّما، فلو ذُكر الخروج والبلد؛ لكان الخروج دائمًا مؤبدًا، وإنّما لم تُذكر مكّة للدّلالة على أنّه خروج مؤقتا، وليس مؤبدا.

كما أن الآيات تُشير إلى أنّ خروج النبيّ–صلى الله عليه وسلم– من مكّة دون ذكر البلد؛ فيه دلالة على أن موطنه– ﷺ – ليس خاصا بنطاق محدد، وإنما هو عامّ باعتبار عموم دعوته– صلى الله عليه وسلم–، لأنه أُرسل للناس كافة، فموطنه عام باعتبار عموم الدعوة؛ وبذا فكل أرض الله له موطنا؛ لأنّ دعوته لكل للناس وفي كل موطن، وهذا خاص به – ﷺ – دون غيره من البشر جميعا(٣)، وهنا نجد خروجه– ﷺ – من وطنه بطريق الإشارة وليس التصريح؛ ليُفهم المراد من التلميح

(١) سورة الأعراف:٨٨.
(٢) سورة التوبة:٤٠.
(٣) إشارة بلاغية شفويّة من الأستاذ الدكتور/ حسني التلاوي وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة، أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر.

أنه خروج مؤقتا، وليس خروجا دائما، وهذا يدل على التكريم والتشريف لسيدنا رسول الله، كما يدل على التنوع في الأسلوب والإعجاز القرآني لبيان وإيراد المقصود الذي نهتم به في هذا السياق ألا وهو خروجه – ﷺ – من وطنه مُكرها غير راغب في هذا الخروج.

المبحث الثاني

الوطن في حياة الأنبياء والصحابة

المطلب الأول

الوطن في حياة سيدنا إبراهيم –عليه السلام–

بلغ الوطن في حياة الأنبياء مكانة كبيرة، ودرجة عالية، فالوطن في حياة الأنبياء، منبع للرسالة التي يحملها كل نبيّ، تتوافق هذه الرسالة لكل نبيّ مع دعوته وفقا لحاجة وطنه، ومتطلبات عصره، فالرسالة المبعوث بها الأنبياء لها علاقة وثيقة بالوطن الذي يبعث فيه الأنبياء، وهذا سيدنا إبراهيم –عليه السلام–، يدعو ربه لولده وزوجه أن يرزقهم الله البلد الآمن، والوطن الصالح، والسكن المطمئن، فقال سبحانه في حق سيدنا إبراهيم –عليه السلام–:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (البقرة:١٢٦)، وقال سبحانه:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} (إبراهيم:٣٥).

بالنظر في هاتين الآيتين تتضح لنا أمورٌ:

أحدها: أن ّدعوة سيدنا إبراهيم الأولى كانت بالأمن والأمان للوطن، قبل الدعوة بالرزق؛ لأنّ الرزق لا يهنأ به الإنسان بدون سلامة وطنه وأمنه، والآيتان تظهران قيمة الوطن في حياة سيدنا إبراهيم وأهله، وقد أجاب الله الدعوة فجعلها بلدا آمنا، وسكنا مطمئنا، قال القاسمي مبيّنا قيمة الوطن في دعاء سيدنا إبراهيم– عليه السلام–: يا رب اجعل هذا الموضع الذي جعلت فيه بيتك، وأمرتني بأن أسكنته من ذريتي بَلَداً أي: يأنس من يحل به آمِناً أي من الخوف، أي لا يرعب أهله... وقد أجاب الله

دعاءه"[١]، وبالفعل قبل الله من سيدنا إبراهيم دعاءه فجعلها آمنة مطمئنة، لا خوف فيها ولا كدر، خيرها كثير، وفضلها عظيم، ولا يمكن حجب زوارها من كثرتهم، ووفرتهم، وتعلق أفئدتهم بها، وفي ذلك ورد قوله تعالى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً}[آل عمران: ٩٧]، وكذا في قوله سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}[العنكبوت: ٦٧].

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن الله أجاب دعوة سيدنا إبراهيم- عليه السلام- بحفظ بلده ووطنه، الذي أسكن فيه زوجته وولده، ورزقهم من الثمرات جميعًا.

الثاني: إن دعوة سيدنا إبراهيم تدل على عموم الدعوة دون تفرقة بين مؤمن وغيره، فيما يتعلق بأمن الأوطان وسلامتها، ولم تكن دعوته لأفراد وأشخاص وإنما للموضع والموطن ذاته بغض النظر عمّن سيعيش فيه أو عليه، ودون النظر إلى ديانته أو عقيدته، فجاء اللفظ بالعموم في قوله:{ بلدا آمنًا}، وقوله:{ البلد آمنا}، ففي الموضعين يشير سيدنا إبراهيم إلى الموطن والموضع، لا إل الأشخاص واعتقادهم، **وهنا قد يطرأ علينا سؤال سائل فيقول:**

لمَ اختص سيدنا إبراهيم- عليه السلام - دعاءه للمؤمنين بالرزق؟ وبم كان الجواب من الله عليه؟

نقول لقد خص سيدنا إبراهيم-عليه السلام- دعاءه للمؤمنين بعد عموم دعوته في قوله:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة:١٢٦]، تأدّبًا مع الله- تعالى- إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعل سيدنا إبراهيم -عليه السلام- استشعر الحرج من ردّ الله عليه في عموم دعائه لذريته في قوله: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، حين أجابه سبحانه بقوله: {لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فظنّ سيدنا إبراهيم أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم، فخصّ الدعوة

(١) محاسن التأويل للقاسمي: ٣٩٥/١.

للمؤمنين بالرزق بعد عمومها في قوله:{ بلدا آمنا}، لأنها عامة لكل من في البلد، ثم خص الرزق، فأجابه الله بقوله سبحانه:{ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ}، وفي هذا إشارة إلى أن رزق الله-تعالى- عام وليس خاصا، فرزقه -سبحانه- للكافر والمؤمن على السواء، قال سبحانه وتعالى:{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(١).

ولهذا المعنى أشار الإمام القشيري بقوله:" ولمّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص؛ أجيب فيهم وفى الذين لم يؤمنوا، ولمّا قال في حديث الإمامة:{ومن ذرّيتى} من غير إذن مُنع، وقيل له:{لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}"(٢).

واقتصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر في التعبير عن المؤمنين؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته، ثُمّ بين- سبحانه- مصير الكافرين في الآخرة فقال: {قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، فمن كفر لا يمنع الرزق في الدنيا مع كفره، وإنما مصيره يوم الحساب.

والضمير في قالَ يعود إلى الله- تعالى-، ومن في قوله: {وَمَنْ كَفَرَ} منصوب بفعل مقدر دل عليه «فأمتعه»، والمعنى: قال الله وأرزق من كفر، وإيراد المتكلم قولا من عنده معطوفا على قول متكلم آخر مألوف في اللغة العربية، ويحسن موقعه عند ما يقتضى المقام إيجازا في القول(٣).

وقد ورد بيان لهذا المعنى عن ابن عباس -ﷺ- فقال في قوله:"{مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ} قال: كأنّ إبراهيم احتجرها عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَمَنْ كَفَرَ}

(١) سورة هود:٦.
(٢) لطائف الإشارات للقشيري: ١٢٥/١.
(٣) ينظر: التفسير الوسيط للدكتور/ محمد طنطاوي شيخ الأزهر -رحمه الله-: ٢٧١/١.

-أَيْضًا- فَأَنَا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ"(١)، وعن عكرمة قَالَ: " قَالَ إِبْرَاهِيمُ: وَتَرْزُقُ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ؟ قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ "(٢).

وبهذا يتضح أن إجابة الدعوة كانت عامة لكل أبناء الوطن؛ وبيان أنهم في كنفه سواء في الأمن والرزق.

الثالث: تقديم دعاء سيدنا إبراهيم -عليه السلام- للبلد والوطن بالأمن قبل الإيمان والأرزاق، فقبل الحديث عن العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر، دعا سيدنا إبراهيم للبلد التي ستنتشر فيها العقيدة وستكون مهبطا لدين الله -عز وجل-، وهذا في الموضعين في البقرة وإبراهيم، بل لم يقدم قضية العقيدة التي هي أصل الرسالات، وبها بعث الأنبياء؛ ليدل ذلك على قيمة وأهمية الوطن الذي لو لم يكن آمناً ما صحت فيه عقيدة، ولا سلمت فيه ديانة، ولا صحت فيه حياة أو معاش بحال من الأحوال.

الرابع: تكرار الدعاء للوطن في الموضعين دون غيره

بالنظر في قصة سيدنا إبراهيم-عليه السلام- نجد تكرار الدعاء بالأمن للوطن في ذكر الموضعين من سورتي البقرة وإبراهيم، واختلاف الدعاء بالرزق في موطن، والإيمان وحسن العقيدة في الموطن الآخر، حين قال -سبحانه- في سورة البقرة: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}(٣).

ثم كُرر الدعاء في سورة إبراهيم، إلا أن الدعاء للوطن بالأمن قد قُرن بحسن العقيدة السليمة -في المرة الأُخرى- التي تدعو إلى دين الله وترك عبادة الأصنام،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده في تفسيره عن ابن عباس:٢٢٩/١، برقم:١٢١٩.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده في تفسيره عن عكرمة:٢٣٠/١، برقم:١٢٢٠.
(٣) سورة البقرة:١٢٦.

فقال سبحانه:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}(١).

فتكرار الأمر يدل على أهميّته وقيمته، وحسن الاعتناء به، ومدى درجة علو شأنه وقدره، وبهذا يتضح قيمة الوطن وفضله، ومكانته، من خلال دعاء سيدنا إبراهيم –عليه السلام–.

(١) سورة إبراهيم:٣٥.

المطلب الثاني

الوطن في حياة سيدنا موسى-عليه السلام- وقومه

كان الوطن من أهم دعائم رسل الله لنشر دين الله-عز وجل- ودعوته في الأرض، فما من نبي بعثه الله-تعالى- أو رسول إلا وكان الوطن هو المرتكز الأكثر أهميّة في سبيل نشر رسالته، وانتشار دعوته، لذا اتخذ أعداء كل نبي الوطن سلاحا يحاربون به الأنبياء، ويستخدمونه لمجابهة دعواتهم، وصدّهم عن تبليغ رسالة ربهم، فها هو سيدنا موسى -عليه السلام-، يصف لنا القرآن الكريم حاله مع بني إسرائيل، وكيف اتخذ فرعونُ وقومُه الوطن وحبهم له، وتعلقهم به، سلاحًا ليحاربوهم به؟ وما قيمة الوطن في حياة بني إسرائيل ومدى تعلقهم به؟ وبالنظر والتمعّن في كتاب الله-تعالى- نجد أنّهم سلكوا في هذا الأمر مسالك تتضح فيما يلي:

١- استثارة فرعون لمشاعر بني إسرائيل حول حبهم للوطن لبث عداوة سيدنا موسى في قلوبهم.

لقد أبان لنا القرآن الكريم ما فعله فرعون إذ بث روح الكراهية والعداء في قلوب قومه تجاه سيدنا موسى-عليه السلام-؛ ليُخوّفهم منه؛ كي لا يتّبعوا دعوته، فقال سبحانه -حكاية عن قول فرعون لقومه-: {إِنَّ هَذَا لَسٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [الشعراء: ٣٤-٣٥].

فهذا عدو الله فرعون يحارب سيدنا موسى-عليه السلام- في نشر دعوته ويستثير مشاعر قومه ضده، ويُخوّفهم منه من خلال بث روح الخوف والفزع في قومه بإخبارهم أنّ سيدنا موسى -عليه السلام-، ما جاء إلا ليخرج قومه من وطنهم، حتى يُألّبهم ضده، ويصدّهم عن دعوته؛ لذا حذّرهم منه باعتبار العاقبة والمآل الذي سينتظرهم إن اتّبعوه، وهو فراق الأوطان.

قال ابن عاشور في تفسيره:" يُرِيدُ إِخْرَاجَ قَوْمِكُمْ مِنْ أَرْضِكُمُ الَّتِي اسْتَوْطَنْتُمُوهَا أَرْبَعَةَ قُرُونٍ وَصَارَتْ لَكُمْ مَوْطِنًا كَمَا هِيَ لِلْمِصْرِيِّينَ، وَمَقْصِدُهُمْ مِنْ ذَلِكَ تَذْكِيرُهُمْ بِحُبِّ وَطَنِهِمْ، وَتَقْرِيبُهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ"(١).

٢- إذا تعلق الأمر بالوطن ينزل المستبدّ من غروره وكبره لطلب المشورة من غيره، كما فعل فرعون مع قومه.

فهذا فرعون ينزل من جبروته واستبداده ليطلب الاستشارة من أتباعه، وجلسائه بعدما أدرك هو وسحرته عجزه عن مجابهة سيدنا موسى -عليه السلام-، فأخبرهم أن سيدنا موسى-عليه السلام- يريد إخراجهم من أرضهم، وتشريدهم من وطنهم، وإبعادهم عن ديارهم، فقال لهم :{ماذا تأمرون}، وبمَ تُشيرون عليّ؟! فبعد أن كان ملكًا ومُدعي للألوهية و لا يُعصى له أمرٌ، أصبح لقلّة حيلته وعجزه، يطلب منهم النصح والإرشاد، قال أبو السعود -في الكشاف- يُصوّر حال فرعون في طلب المشورة والرأي في ذلٍ وانكسارٍ يُحيطه من كل صوبٍ:" وأظهر استشعارُ الخوفِ من استيلائه على مُلكه ونسبةُ الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى -عليه السلام-"(٢).

وقال صاحب روح البيان في تفسيره:" ماذا تشيرون به عليّ في دفعه ومنعه، وقهره سلطان المعجزة، فحيّره -أمر سيدنا موسى -عليه السلام-حتى حطّه عن دعوى الربوبية الى مقام مشاورة عبيده بعد ما كان مستقلا بالرأي والتدبير، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على مُلكه، ونسبة الإخراج والأرض إليهم؛ لأجل تنفيرهم عن موسى"(٣).

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور:٤٢/٩.
(٢) تفسير أبى السعود:٢٤١/٦.
(٣) روح البيان لإسماعيل حقي:٢٧١/٦.

٣- **إنزال فرعون نفسه منزلة أحد أبناء الوطن من أجل محاربة دعوة سيدنا موسى.** أنزل فرعون -الذي كان يدّعي الألوهية- نفسَه منزلة الفرد العادي حينما تعلق الأمر بالوطن، وجعل الحرب التي أقامها ضد سيدنا موسى-عليه السلام- ودعوته، هي حربا لكل أبناء الوطن؛ رغبة في بيان أنه جاء ليخرج الناس من أرضهم وديارهم ووطنهم، وهذا يدل على قيمة الوطن وأهميته في حياة بني إسرائيل، وقد أدرك فرعون قيمة هذه الحقيقة، وأدرك مدى تأثيرها على الناس فاتخذها مسلكا للصدّ عن سبيل الله -تعالى-، وجعل القضية: بين دعوة الناس لدين الله، وبين إخراجهم من الأوطان، ممّا يغلق الباب بالكلّية أمام دعوة سيدنا موسى-عليه السلام-، وذلك في قول الله تعالى- حكاية عن فرعون-: { قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يٰمُوسَى} [طه:٥٧]، فألقى على مسامع قومه ما لا يُنصتون به لسيدنا موسى-عليه السلام- ولا لدعوته ابتداءً؛ لأن هذا مما يشق على النفس، ولا يتقبله أحد فيُغلق باب السمع والنظر والتفكر في الأمر، ما دام سيفارق الإنسان وطنه وأرضه، وقد سئل أحد الحكماء فقيل له: «ما أشد من الموت؟ قال: الذي يُتمنى فيه الموت، وجعل الإخراج من الوطن من الأمور التي يُتمنى عندها الموت، وفي هذا قال القائل:

لَقتلٌ بِحَدِّ السَّيفِ أَهْونُ مَوقِعا ... عَلَى النفس مِن قَتْل بِحدّ فراق[1].

٤- التأثير على النفس بإشاعة الأمر الكاذب بين العامة والخاصة ليصير صدقًا.

لقد سلك بنو إسرائيل مسلك فرعون بإشاعة أن سيدنا موسى -عليه السلام- ما أتى إلا ليخرج الناس من أوطانهم، وجاء ليأخذ أرضهم وديارهم، كي يتخذ الناس منه الحذر، فلا يسمعون له، ولا يستجيبون له، ولا يسيرون خلفه، وهذا ما فعله فرعون قبل قومه، فتأثر الناس بهذه الشائعة، وصدّقوها حتى كاد الكذب -في أعين

(١) الكشاف للزمخشري: ٢٦٣/١.

بني إسرائيل- أن يكون حقًا، وقد وصف القرآن هذا الحال في قوله سبحانه:{ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}(١).

كما سلك قوم فرعون نفس المسلك مع سيدنا هارون، فوصفوه -مع سيدنا موسى- بنفس الوصف الذي جعلهم يصدّون عنه بالكليّة، لما يمثّل لهم الوطن من قيمة لا يعادلها قيمة، فقال سبحانه واصفًا قولهم في حق سيدنا موسى وهارون- عليهما السلام-:{ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} (طه:٦٣).

فنجد أن قوم فرعون قد أشاعوا بين الناس قضيةً كاذبة، وأمرا مختلقًا من الباطل؛ ليحاربوا به أنبياء الله ودعوتهم، وبالنظر نجد أن قومهم ما حدّثوهم عن تعاليم دينهم الذي ينادون به، ولا معجزاتهم التي لا يُنكرها عقل، ولا ما يتعلق بما أُرسلوا به، كلّ هذا لأنّهم جعلوا حب الوطن مقدمًا على كل شيء، حتى مجرد السماع من أنبياء الله -تعالى- أصموا آذانهم عنه في مقابلة حب الوطن، مع وجود ما يثبت لبني إسرائيل صدق دعوة سيدنا موسى وهارون عليهما السلام.

٥- حنين سيدنا موسى- عليه السلام- لوطنه بعد قضاء الأجل في مدين.

فهذا سيدنا موسى-عليه السلام- يحنّ لوطنه وأرضه، بعد أن مكث في مدين عشر سنين-على الراجح- بعيدا عن وطنه، يفي بوعده لقضاء الأجل الذي حدّه على نفسه، قرر الرجوع لبلده ووطنه -مصر الخير-، الأرض المباركة، والبقعة المقدسة بطور سيناء، إذ تجلّى عليها المولى -جل في علاه- فهي التي تُقتحم من أجلها الأغوار، وتُركب في سبيلها الأخطار، فيقرر سيدنا موسى-عليه السلام- مع حالتها هذه الرجوع إلى بلده دون أن ينتظر حتى تضع زوجه مولودها، وهذا

(١) سورة الأعراف: ١٠٩-١١٠.

يدل على اشتياقه لوطنه، ومدى تعلقه به، ووصف القرآن الكريم رحلة سيدنا موسى–عليه السلام–، وتفاصيل ورجوعه بأهله إلى وطنه–مصر–، فقال سبحانه:{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [القصص:٢٩].

قال ابن جُزيّ:" أي الأجل المذكور، وَسارَ بِأَهْلِهِ، الأهل هنا: الزوجة مشى بها إلى مصر"(١)، وقال ابن العربي:" قَالَ عُلَمَاؤُنَا: لَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ طَلَبَ الرُّجُوعَ إلَى أَهْلِهِ، وَحَنَّ إلَى وَطَنِهِ، وَفِي الرُّجُوعِ إلَى الْأَوْطَانِ تُقْتَحَمُ الْأَغْرَارُ(٢)، وَتُرْكَبُ الْأَخْطَارُ، وَتُعَلَّلُ الْخَوَاطِرُ"(٣)، وهذا يدل على قيمة الوطن عند سيدنا موسى–عليه السلام–، مع بيان قيمة مصر وفضلها، وإذا ما كانت رحلة سيدنا موسى–عليه السلام– محفوفة بالأخطار، وممزوجة بالأغوار، إلا أنّ كل هذا في سبيل الوطن والوصول إلى أهله وبلده لا يساوي شيئًا.

٦- أخذ الله العهد على بني إسرائيل ألا يُخرج بعضُهم بعضا من داره ووطنه.

لقد كان للوطن مكانة كبيرة في حياة بني إسرائيل، لذا كان يعاقب بعضهم بعضا بالإخراج من الديار، ومفارقة الأهل والأوطان، وكان هذا بينهم شائعا، لأنّهم كانوا يقدّرون قيمة الأرض والوطن، وقد أخذ الله عليهم الميثاق بعدم فعل هذا فقال سبحانه:{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل:١١٣/٢، وفتح القدير للشوكاني:١٩٦/٤.
(٢) والمراد: اقتحام المهالك والمخاطر، ومجاوزة كل خطر من أجل الوطن وحمايته.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ٥١١/٣.

عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة:٨٤-٨٥).

فالله سبحانه-وتعالى-، قد أمرهم في التوراة بعدم قتل بعضهم بعضا، وبعدم إخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم، إلا أنّهم خالفوا هذا الأمر، ونجد أنّ الحق-سبحانه- قد قرن العهد إليهم بعدم القتل وعدم الإخراج من الديار معًا بما يُشعر بِعِظَم جُرم من فعل هذين الأمرين، والمراد: عدم تهجير بعضهم لبعض من أوطانهم وأراضيهم وديارهم، لأنّ أيّ فعل من هذه الأمور يشقّ على النفس، ولا تقبله النفوس السوية، كما أنّ كلا منهما ينزل منزلة الآخر في المنزلة والدرجة؛ فقرن بين القتل ومفارقة الديار لبشاعة أثرهما على النفس، إلا أنّهم لم يستجيبوا لأوامر الله في التوراة، فذكّرهم ربنا بهذا العهد في القرآن الكريم علّهم يتعظون، وعن سوء فعلهم يرجعون.

وفي هذا ما يدلّ على مرارة فقد الوطن ممثلا في داره وأرضه، كما يدلّ على أهميته في حياة بني إسرائيل، ومنزلته في نفس سيدنا موسى-عليه السلام-، كما بيّن القرآن الكريم في قصة رجوعه إلى مصر بأهله أثناء فترة حملها بمجرد بلوغ الأجل.

المطلب الثالث

الوطن في حياة سيدنا محمد ﷺ

لقد صوّر لنا القرآن الكريم قيمة الوطن وأهمية في حياة سيدنا رسول الله -ﷺ- وأصحابه في مواطن عدة، إلا أنّ الوطن في حياة سيدنا رسول الله كان له طابع خاص، ومكانةٌ كبيرةٌ، وبالنظر في كتاب الله نرى كيف اهتم القرآن الكريم ببيان قدر الوطن ومكانته-بطابع خاص- في حياة سيدنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وهذه المكانة يمكننا إبرازها فيما يلي:

أولا: **تسلية النبي- ﷺ - وإخباره بأن إخراجه من وطنه في سبيل دعوته طريق الأنبياء من قبله.**

مهّد الحق سبحانه-وتعالى- لنبيّه طريق دعوته، وبيّن له أن طريق الدعوة محفوف بالشدائد والمخاطر، أظهرها وأشدّها الخروج من الأوطان ومفارقة الديار، وهذا دأب معظم من سبقك من الأنبياء، فأكثر الأنبياء والرسل أخرجهم قومهم من ديارهم، وناصبوهم العداء بسبب دعوتهم ورسالتهم، فنجد في سورة إبراهيم التصريح ببيان هذا الأمر، ومعلوم أن سورة إبراهيم مكيّة، نزلت على سيدنا رسول الله وهو مازال بمكّة قبل الهجرة، تمهيدا لمَ سيُقدمُ عليه الكفار والمشركون، فيكون هذا تسلية لرسول الله- ﷺ -، وفي هذا ما يدلّ على قيمة الوطن عند النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين* وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِـــمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}[١].

قال ابن كثير:" يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ رُسُلَهُمْ، مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ"[٢]، فكان هذا البيان من الله لحبيبه ومصطفاه،

(١) سورة إبراهيم:١٣-١٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٣.

وإخباره أن طريق الدعوة سيقابل بالكثير من المشاق، وفي مقدّمتها ترك الأوطان، كما كان حال الأنبياء من قبلك، فليس إخراج النبي من وطنه بجديد، بل هو ما فعله أقوام الرسل والأنبياء السابقين مع رسلهم الذين بعثهم الله إليهم، وقد وضّح هذا الأمر القرآن الكريم في مواضع شتى.

فهذا سيدنا شعيب –عليه السلام– يُرسله ربنا لقومه لدعوتهم إلى دين الله، واتباعه بما جاء به من ربه–سبحانه وتعالى– فما كان جواب قومه لسيدنا شعيب ولمن آمن معه إلا أن قالوا:{لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}(١)، وما كان ذنبه إلا أن دعاهم إلى عبادة الله –تبارك وتعالى–، فخيّروه بين ترك دعوته والبقاء في وطنه، أو ترك وطنه وخروجه بدعوته بعيدا عنهم، فما كان جزاؤهم إلا أن أهلكهم الله بقدرته، ونصر الله سيدنا شعيبا عليهم بدعوته ورسالته.

كما بيّن لنا القرآن لكريم ما حدث مع قوم سيدنا لوط–عليه السلام–فقد قالوا له كما قال قوم سيدنا شعيب له، وتكالبوا من أجل إخراجه –ومن آمن معه– من أرضه؛ لأنّ نبي الله لوط ومن معه كانوا ينهون عن الفحشاء، ويأمرون بالعفة والطُهر، وترك الفسق والشذوذ الذي كان يمارسه قوم لوط، من إتيان الرجال للرجال من دون النساء، وهذا يخالف الطبيعة البشرية، والفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، فقال قوم لوط لنبيّهم ومن معه، كما بيّن لنا ربنا بقوله: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}(٢).

وكما فعل أعداء الله مع أنبيائه ورسله السابقين، فعل أهل مكة مع سيدنا محمد – ﷺ –، فقال –سبحانه– إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(٣)، وَقَالَ

(١) سورة الأعراف:٨٨.
(٢) سورة النمل:٥٦.
(٣) سورة الأنفال:٣٠.

تَعَالَى {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا}(١).

فإخراج النبي – ﷺ – من مكة، سبقه إخراج رسل الله من أرضهم، وليس هذا بدعا من الرسل، وإنما هذه ضريبة يدفعها المصلحون، ويجنيها الداعون إلى الإصلاح في الأرض، ودعوة الناس إلى خالقهم سبحانه وتعالى، فكان هذا من باب تطيب خاطر النبي–صلى الله عليه وسلم–، وتسلية له لما سيفعله به أبناء وطنه وأرضه في سبيل نشر دعوة الحق سبحانه وتعالى.

ثانيا: مصير من حارب الأنبياء والرسل وأخرجوهم من أوطانهم أن يُهلكهم الله وينصر رسله عليهم.

بيّن الحق جلّ علاه أنّه ما من أهل نبيّ أخرجه قومه وعادوه إلا أهلكهم الله بعذاب من عنده؛ جزاء ما فعلوه، كما أخبر ربنا بقوله:{ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين}، فأوحى الله إلى رسله وأنبيائه بهلاك من حاربهم وناصبهم العداء، فكذا من حاربك يا رسول الله، فاصبر واحتسب وسيكون الهلاك لهم والنصر لك ولمن معك، فإنّهم ظلموا أنفسهم، بمحاربة دين الله ورسله، فسيهلكهم الله بعذاب من عنده.

قال ابن كثير:" وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَى: أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ بِسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجُنْدًا، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَزَلْ يُرَقِّيهِ اللَّهُ –تَعَالَى– مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، حَتَّى فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا، وَأَرْغَمَ آنَافَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ"(٢).

وهذا ما أوضحه القرآن الكريم عقابا في حق كل من أخرج أنبياء الله من أوطانهم، فكما ناصبوا أنبياء الله العداء– ومنهم سيدنا محمد– بإخراجهم من أرضهم، ومفارقة أوطانهم، يرد الله الأمر على عقبه، ويجعل الغلبة لأنبيائه، ويمكّن

(١) سورة الإسراء:٧٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٣.

لهم في الأرض، وينشر دعوة رسله، بأن يصيروا إلى أرضهم وأوطانهم فاتحين منتصرين، كما حدث مع النبي- ﷺ - وأنبياء الله من قبله، فقال سبحانه: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، قال أبو السعود:" أي أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم لنُخرجَنّكم من أرضنا"(١) وقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}(٣)، وقَال سبحانه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}(٤)، وَقَالَ تَعَالَى في حق بني إسرائيل: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}(٥).

وقد أبان لنا القرآن الكريم عاقبة الأمم السابقة التي كذّبت أنبياء الله فأهلكهم في أوطانهم، وصرّح بذكر الدار ويراد بها الأوطان لدلالة أنّ هذه الأمور من أشدّ ما وقع عليهم من العذاب النفسي والجسدي، لشدّة تعلقهم بالديار والأهل، وبسبب تعاليهم وكبرهم على أنبياء الله بإخراجهم من ديارهم، فأهلك الله هذه الديار وتلك الأوطان.

فهؤلاء قوم ثمود قال- سبحانه وتعالى- في شأنهم:{ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}(٦)، وقال- جلّ شأنه- عن قوم شعيب: { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}(٧)، والمتأمل يجد أن العذاب والهلاك

(١) تفسير أبي السعود:٣٨/٥.
(٢) سورة الصافات:١٧١-١٧٣.
(٣) سورة المجادلة:٢١.
(٤) سورة الأنبياء:١٠٥.
(٥) سورة الأعراف:١٣٧.
(٦) سورة هود:٦٥.
(٧) سورة الأعراف:٩١.

مقرون بذكر الدار التي هي لهم الوطن والسكن وأثمن ما يملكه القوم، فيُهلك الله ديارهم وأوطانهم حسرة عليهم، ومن هذه الآيات تتضح سنة الله في الإخراج من الأوطان، وبيان شدّته على الأنفس للأنبياء وغيرهم، كي يعلّموا الناس الصبر في سبيل نشر دين الله، وأهمية الأوطان وألم مفارقتها على الناس جميعًا؛ لذا كانت أول ما يُحارب به الأنبياء، إلا أنّ الله ناصرهم ورادّهم إلى أوطانهم وأهليهم.

ثالثا: حب سيدنا رسول الله لوطنه وتعلّقه الشديد به.

كان الوطن في حياة النبي- صلى الله عليه وسلم- من أحب الأشياء إليه، فمكّة مولده وموطنه الخاص، فبها نشأ وتربّى، وبين جبالها ورمالها وصخورها، كانت طفولته، وريعان شبابه، لذا كان يحبها حبا شديدا، ولم يكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- بدعًا من الرسل في حبه لوطنه، فقد اعترى الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما يعتري كلَّ وَفِيّ لتراب أرضه، وعاشقٍ لوطنه، فنجده يتألم لفراقه، ويحنّ شوقًا إليه، ويتحرك قلبه لذكر دياره، وكان تركه ومفارقته له أول خبر تلقاه النبيّ -ﷺ- حينما جاء إليه سيدنا جبريل -عليه السلام- حينها ذهب النبي-ﷺ- يرجف فؤاده إلى بيت السيدة خديجة، ثم أخذته وذهبت به لورقة بن نوفل وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب العبرانية، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا أصابه العمى، فقالت له السيدة خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله -ﷺ- خبر ما رأى فقال له ورقة:" هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"(١).

وهذا الموقف يظهر مدى تعلق النبي بوطنه الخاص- مكّة- وحبه وتعلّقه الشديد به، فهو يسأل مستنكرا عِظم جُرم ما قد يفعله القوم من الاعتداء على سيدنا

(١) ينظر: صحيح البخاري: ٧/١، بسنده عن السيدة عائشة، كيف كان بدأ الوحي، برقم:٣.

رسول الله بإخراجه من وطنه وأرضه، ويتعجب كيف لهم أن يخرجوني من وطني؟! وهنا يُظهر له ورقة بن نوفل أن الخروج من الأوطان هو أشد أنواع العذاب والعقاب التي يتبعه أعداءُ الله ضد أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبالنظر إلى محبوبات سيدنا رسول الله-ﷺ- نجد أنّ حبه لوطنه على رأسها، فقد أورد أصحاب السّير والتاريخ محبوبات سيدنا رسول الله -ﷺ- ومنها الوطن، قال الذهبيّ-رحمه الله-:" وَكَانَ يحِبُّ عَائِشَة وَيحبُّ أَبَاهَا، ويحب أسامة، ويحب سبطيه، ويحب الحلواء وَالعَسَل، وَيحبّ جَبَل أُحُد، وَيحبُّ وَطَنه"(١).

كما تُسجلُ لنا الأحداث المواقف في حياته-صلى الله عليه وسلم- تعلّقه الشديد بوطنه فعند خروجه من مكّة يقف على مشارفها، و ينظر إليها بحسرة، ويخاطبها بحنين دفّاق يكسوه الألم، وفي مشهد يُدمي القلب، ويُبكي العين، يقول بشوق:« ما أطيبَك من بلدٍ وأحبَّك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»(٢).

وهذا الخطاب من سيدنا رسول الله يُظهر لنا قيمة مكّة في حياته، وشدّة حبه لها، وألم فراقها ومغادرتها، ويأبى الله إلّا أنّ يُتم نوره، وينصر رسوله ويرده إلى وطنه ظاهرا فاتحا منتصرا، ليُطيّبَ خاطر نبيّه ومصطفاه فقال سبحانه:{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}(٣).

قال الرازي في تفسيره لهذ الآية موضّحا قيمة مكّة وحب النبي لها، وجبر الله لخاطر نبيه وهو في طريق الهجرة إلى المدينة: "قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ مِنَ الْغَارِ وَسَارَ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ مَخَافَةَ الطَّلَبِ، فَلَمَّا أَمِنَ رَجَعَ إِلَى الطَّرِيقِ وَنَزَلَ بِالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَّةَ وَاشْتَاقَ إِلَيْهَا وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي:٦٩/١.
(٢) أخرجه الترمذيّ في سننه:٢٠٨/٦، باب فضل مكّة، برقم:٣٩٢٦، وقال عنه: حسن صحيح، والهيثمي في مورد الظمآن إلى زوائد ابن حبان:٣٥٢/٣، برقم:١٠٢٦.
(٣) سورة القصص:٨٥.

وَمَوْلِدَ أَبِيهِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ وَقَالَ: تَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}، يَعْنِي إِلَى مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ وَهَذَا أَقْرَبُ، لِأَنَّ ظَاهِرَ الْمَعَادِ أَنَّهُ كَانَ فِيهِ وَفَارَقَهُ وَحَصَلَ الْعَوْدُ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَكَّةَ، وَإِنْ كَانَ سَائِرُ الْوُجُوهِ مُحْتَمَلًا لَكِنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ، قَالَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ: وَهَذَا أَحَدُ مَا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنِ الْغَيْبِ وَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ فَيَكُونُ مُعْجِزًا"(١)

وفي موقف آخر من حياته-ﷺ- يتّضح لنا مدى تعلّقه بمكّة التي تربّى فيها، وعاش بين جبالها ووديانها، ورمالها وصخورها، إلا أنّه يشتاق إليها ويحن إليها بعد مفارقتها لشدة تعلّقه بها؛ لأنها وطنه، فقد سألت السيدة عائشة -رضي الله عنها- يومًا أُصيلًا فقالت له:« يَا أَصِيلُ، كَيْفَ عَهِدْتَ مَكَّةَ؟ قَالَ: عَهِدْتُهَا قَدْ أَخْصَبَ جَنَابُهَا، وَابْيَضَّتْ بَطْحَاؤُهَا قَالَتْ: أَقِمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَصِيلُ، كَيْفَ عَهِدْتَ مَكَّةَ؟» قَالَ: وَاللَّهِ عَهِدْتُهَا قَدْ أَخْصَبَ جَنَابُهَا، وَابْيَضَّتْ بَطْحَاؤُهَا، وَأَغْدَقَ إِذْخِرُهَا، وَأُسْلِتَ ثُمَامُهَا، وَأَمَشَّ سَلَمُهَا فَقَالَ: «حَسْبُكَ يَا أَصِيلُ لَا تُحْزِنَّا»(٢).

وهذا الأثر يُوضّح أن النبيّ -ﷺ- متعلق بمكّة تعلقًا كبيرًا لدرجة أنه لا يتحمل وصفها دون أن يتمكن من رؤيتها، وإن كان يتحدث الواصف عن الجبال والرمال إلا أنّها بالنسبة له موطن الحنين، وبيت الذكريات، وأرض الطفولة وريعان الشباب مع ما كان يُعانيه من شدة وعذاب على أيدي أهل مكّة، إلا أنّ الحنين إلى الوطن عند سيدنا رسول الله يغلب على القسوة والجفاء الذي لاقاه وعاناه.

رابعا: جعل الله الخروج من الأوطان مساويًا للقتل.

أنزل الله-تعالى- الخروج من الأوطان منزلة قتل النفس، لشدة ألم كلٍ منها على النفس، ولبيان قيمة كل من الأمرين قال سبحانه وتعالى:{ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**}(٣)، فأثمن شيء عند

(١) مفاتيح الغيب:١٩/٢٥.
(٢) أخبار مكّة وما جاء فيها من آثار للأزرقي:١٥٥/٢.
(٣) سورة النساء:٦٦.

الإنسان نفسه وحياته، ولا يوجد أثمن منها، ثم نجد أنّ الأمر بإزهاق النفس مرتبط بالخروج من الديار، ومفارقة الأوطان وفي هذا ما يدّل على أهميّة الوطن في حياة سيدنا رسول الله وصحابته، يقول الفخر الرازي مؤكّدا هذا المعنى:" وَالْمَعْنَى أَنَّا لَوْ شَدَّدْنَا التَّكْلِيفَ عَلَى النَّاسِ، نَحْوَ أَنْ نَأْمُرَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْأَوْطَانِ؛ لَصَعُبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَمَا فَعَلَهُ إِلَّا الْأَقَلُّونَ، وَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ كُفْرُهُمْ وَعِنَادُهُمْ، فَلَمَّا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَّا عَلَى عِبَادِنَا بَلِ اكْتَفَيْنَا بِتَكْلِيفِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّهْلَةِ، فَلْيَقْبَلُوهَا بِالْإِخْلَاصِ وَلْيَتْرُكُوا التَّمَرُّدَ وَالْعِنَادَ حَتَّى يَنَالُوا خَيْرَ الدارين"(١).

وقد ورد عن سيدنا أبي بكر–ﷺ– أنه قال: لو كُتب علينا لبدأت بنفسي وبأهل بيتي، فقد أخرج ابن أبي حاتم بسنده:« لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: يا رسول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت فقال: صدقت يا أبا بكر»(٢). وبمثل ما قال أبو بكر قال بعض الصحابة–رضوان الله عليهم أجمعين– وعدّ منهم النبيّ–ﷺ– سيدنا عمر بن الخطاب، وثابت بن قيس، وعمّار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود وغيرهم، وقال في حقهم أنّهم من القليل الذين يُسارعون إلى الاستجابة والطاعة للأوامر، واجتناب النواهي(٣).

وورد عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ–: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} [النساء: ٦٦] قَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ –ﷺ–: لَوْ فَعَلَ رَبُّنَا لَفَعَلْنَا، فَبَلَغَ النَّبِيَّ –ﷺ–، فَقَالَ النَّبِيُّ –ﷺ–: «الْإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي»(٤).

وعلى ما تقدم ذكره نجد أن للوطن مكاناً عظيماً، وقدرًا كبيرًا، في حياة سيدنا رسول الله–ﷺ– كما بيّن القرآن الكريم، وأوضحت آياته وإشاراته في كثير من الآيات.

(١) مفاتيح الغيب:١٢٩/١٠.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم:٩٩٥/٣، بسنده عن عامر بن عبد الله بن الزبير رقم:٥٥٦٦.
(٣) تفسير ابن عطية:٧٥/٢.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم:٩٩٥/٣، بسنده عن الحسن برقم:٥٥٦٥.

المطلب الخامس

الوطن في حياة الصحابة رضوان الله عليهم.

أوضح لنا القرآن الكريم مدى تعلق الصحابة رضوان الله عليهم ببلدهم ووطنهم، فنجد أنّ ما فعله أعداء رسل الله وأنبيائه-كما تقدم- من إخراجهم من ديارهم، وتشريدهم عن أوطانهم هو ذات السبيل الذي اتخذه المشركون تجاه سيدنا رسول وأصحابه، وبالتأمل في كتاب الله يمكن إجمال قيمة الوطن في حياة الصحابة في الأتي:

أولا: ثناء الله على الصحابة ووعدهم بالثواب العظيم في الآخرة ثوابا لإخراجهم من أوطانهم ظلمًا وعدوانًا.

أوضح القرآن الكريم قيمة الوطن عند صحابة سيدنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في أكثر من آية، مثلُهُم في ذلك كسيدنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وغيره من الأنبياء، ومدح ربنا-سبحانه- الصحابة الذين أُخرجوا من ديارهم وأوطانهم، وتركوا أرضهم، وديارهم، وأموالهم ابتغاء مرضات الله وأثنى عليهم، ووعدهم بالفضل الجزيل فقال -سبحانه- في حقهم:{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}(١).

والمراد هو مدح الصحابة الذين تركوا- مكّة- وطنهم وأرضهم مهاجرين بدينهم إلى المدينة؛ بعدما لاقوا صنوف العذاب وأنواعه، وصوره وأشكاله، وبالتدبر في هذه الآية نجد أن الله -سبحانه- قدّم الهجرة والخروج من الديار، ومفارقة الأوطان، والتشريد في الأرض على العذاب والإيذاء الذي كانوا يتعرضون له ليلاً نهارًا، ثّمّ ذكر بعدها القتل والمقاتلة في سبيل الله، وهذا يُشعر بمدى صعوبة مفارقة الوطن والخروج من مكّة على أصحاب رسول الله؛ بسبب الظلم الذي وقع بهم، قال

(١) سورة آل عمران:١٩٥

الألوسي عند تفسير هذه الآية:" تلك المهاجرة كانت عن قسر واضطرار، لأن المشركين آذوهم وظلموهم حتى اضطروا إلى الخروج"(١)، وقال ابن جُزيّ:" هم المهاجرون آذاهم المشركون بمكة حتى خرجوا منها"(٢)، ثم نجد الثواب الجزيل من العليّ الكبير أن وعدهم بتكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم، وإدخالهم جناتهم التي وعدهم بها جزاء ما تحمّلوه من العذاب، ومفارقة الأحباب، وترك الديار والأهل والأصحاب.

ثانيا: إخراج الصحابة من وطنهم كان سببا للإذن بالقتال.

وقع على الصحابة–رضوان الله عليهم–من صنوف الأذى وألوانه–في مكة– الكثير ظلمًا وعنتًا، كالتعذيب والاضطهاد، وأخذ أموال، والاستيلاء على الممتلكات الخاصة بالصحابة–رضوان الله عليهم–، إلا أنّ الله–عز وجل– كان يأمرهم بالصبر والمصابرة، فقال سبحانه:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(٣)، وظلّ الحال هكذا حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة، فأبيان القرآن الكريم في سورة الحج حال الصحابة وما تحمّلوه من ألم وعذاب، إلا أنّ الله –سبحانه– قد خصّ الخروج من الأوطان –دون ذنب أو جريمة– بالذكر –دون سواه من العذاب الذي وقع بهم–، بسبب أنهم قالوا ربنا الله؛ وفي هذا ما يدل على شدة ما وجده الصحابة في نفوسهم من هذا الخروج وهذه المفارقة للوطن؛ لذا كان الإذن بالقتال بمجرد أن فارقوا الوطن وتركوه، لأنّ بعد فراق الأوطان يبلغ العذاب منتهاه، وقد صور لنا القرآن هذه الحقيقة في قوله سبحانه: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}(٤)، والمراد بالديار هنا: مكّة المكرّمة، –بلدهم ووطنهم–، وفي هذا الأسلوب القرآني ما يدل على أثر هذا الفراق على

(١) روح المعاني للألوسي:٣٧٩/٢.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزيّ:٢٣١/١.
(٣) سورة آل عمران:٢٠٠.
(٤) سورة الحج:٤٠ .

النفس، وشدة المعاناة والألم، كذا يتضح –في اختصاص الله بذكر الوطن مقرونا بالإذن بالقتال، ما يُشعر بقيمة الوطن وأهميته في نفوس أصحاب سيدنا رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وقد أشار لهذا المعني الإمام الفخر الرازي في تفسيره حيث قال:" فَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أُذِنُوا فِي الْقِتَالِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ ظُلِمُوا، فَبَيَّنَ ذَلِكَ الظُّلْمَ بِقَوْلِهِ: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} فَبَيَّنَ تَعَالَى ظُلْمَهُمْ لَهُمْ بِهَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّه وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَجْهَيْنِ عَظِيمٌ فِي الظُّلْمِ"(١).

ثالثا: مدح الصحابة لهجرتهم أوطانهم، بترك ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه.

مدح الله –سبحانه وتعالى– الصحابة– رضوان الله عليهم– الذين أُخرجوا من ديارهم، وتركوا أوطانهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، فوصفهم بالصدق، وأثبت لهم صدق الإيمان، وثبات الدين في قلوبهم؛ لأنّ التضحية بالوطن وتركه بالنسبة إليهم من أغلى وأعظم التضحيات على نفوسهم؛ لأنّ الهجرة والفرار بالدّين من مكّة وأهلها في سبيل الله–عز وجل– ومن أجل نشر دين الله هي التضحية الكبيرة؛ لذا مدح الله–سبحانه– إيمانهم، وصدقهم، وثبات دينهم، مع فقرهم وقلة ثرواتهم، فقد تركوا كل هذا من أجل سيدنا رسول الله–ﷺ– ودعوته فقال سبحانه مادحًا لهم بتركهم الوطن من أجل الإيمان:{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}(٢)، وقد عدّ الفخر الرازي صفات مدح الله للصحابة ومنها تركهم لمكّة وخروجهم منها بغير حق ثم وصفهم بالصدق في الإيمان فقال:" أَوَّلُهَا: أَنَّهُمْ فُقَرَاءُ وَثَانِيهَا: أَنَّهُمْ مُهَاجِرُونَ وَثَالِثُهَا: أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَعْنِي أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أَحْوَجُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ فَهُمُ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُمْ وَرَابِعُهَا: أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّه

(١) مفاتيح الغيب:٢٢٩/٢٣.
(٢) سورة الحشر:٨ .

وَرِضْوَانًا... قَوْلُهُ: أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمَّا هَجَرُوا لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَتَحَمَّلُوا شَدَائِدَهَا لِأَجْلِ الدِّينِ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ فِي دِينِهِمْ"(١)، وقال البيضاوي يُؤكد هذا المعنى:" فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم، (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً) حال مقيّدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم... أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ: في إيمانهم"(٢).

وبهذا يتضح أنّ فضلهم وشرفهم ومدحهم من ربهم –سبحانه–؛ باعتبار أنّهم تركوا أرضهم–وطنهم– وديارهم ابتغاء نصرة دين الله ورسوله؛ وهذا الخروج وتلك الهجرة التي أبعدتهم عن الوطن والأموال هي دليل صدق إيمانهم ومدح الله لهم وعلو قدرهم ومنزلتهم في الدنيا والآخرة، وبهذا يتضح قيمة الوطن وأهميته عند صحابة سيدنا رسول الله–ﷺ– كما بيّن القرآن الكريم.

وبمثل ما كان للوطن من قيمةٍ عند المهاجرين، كان كذلك عند الأنصار في المدينة، فمدحهم ربنا في قوله سبحانه:{ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}(٣)، ويراد بهم أهل المدينة، ممّن جعلوها وطنا ثانيا للمهاجرين، وأصبحت المدينة وطنا آخر لسيدنا رسول الله–ﷺ–بعد الهجرة ولصحابته أجمعين.

(١) مفاتيح الغيب:٥٠٧/٢٩
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:٢٠٠/٥.
(٣) سورة الحشر:٩

المبحث الثالث

واجبنا نحو الأوطان من خلال آيات القرآن الكريم

بالنظر والتتبع لآيات القرآن الكريم نجد أن للأوطان مكانة كبيرة وعظيمة في نفوس البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم، وطبقاتهم، ولغاتهم، كلٌ في حب وطنه سواء، يحن إلى وطنه، ويشتاق إلى تربته، ويتنسم عبير رياحه، ونسيم هوائه، الوطن بكل ما فيه من جبال وصخور ورمال فهي بالنسبة لسكانها وأهلها، روح وريحان، وجنة وأمان، كدرها صفو وراحة، ونَصَبُها سكينةٌ وطمأنينة، والغربة بالنسبة لأهلها عذابٌ ونكالٌ، ومشقةٌ وفراقٌ، لا تجد سعيدا بغربة، ولا فرحا بسفر يُطيل المسافةَ بُعدًا عن الأهل وفُرقة، فالوطن الذي لم يرد ذكره صراحة في كتاب الله–تعالى– إلا أنّ القرآن الكريم عبّر عنه بعبارات، وألفاظ أظهرت قيمته وقدره، فأنزل القرآن الوطن منزلة دار الإنسان التي يعيش فيها، ويحتمي بها؛ ليُشعر السامعَ بقيمة الوطن ومكانته، ومن خلال التدبر في كتاب الله نجد أن الله –سبحانه– كما جعل علينا حقوقا وواجبات تجاه كل من له فضل علينا؛ فقد حثنا القرآن الكريم وأرشدنا إلى فضل الوطن علينا؛ فأوجب على كل إنسان تجاه وطنه أمورا نُجملها في ما يأتي:

أولا: حب الوطن والإخلاص له

إن المتأمّل في كتاب الله تعالى وسنة سيدنا رسول الله–ﷺ– يدرك أن حب الوطن شيء فطري، طبع عليه الإنسان لذا وجب على كل إنسان أن يخلص لوطنه وبلده، وقد تجسّد هذا المعنى في دعاء سيدنا رسول الله –ﷺ– حينما وقف على مشارف مكّة قائلا:[مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ][1].

(١) أخرجه الترمذي بسنده عن ابن عباس:٢٠٨/٦، برقم:٣٩٢٦، وقال عنه حسن صحيح.

فحُبُ النبي لمكّة التي عُذّب وحُورِب فيها، وأُخرج منها مضطراً ومُكرها، ومع هذا لم يتغيّر أو يتبدّل حُبُّه وشوقه إليها، بل في شدّته ومحنته واضطهاده لم يمنعه ذلك من حبّه لوطنه وبلده، ويُشر القرآن الكريم إلى هذا الحب الكامل، والإخلاص التام للوطن في سورة التوبة حينما صوّرت لنا السورة حال سيدنا رسول الله–صلى الله عليه وسلم– وأبا بكر وهما في الغار في قوله سبحانه:{ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}(١)، فهذه الآية تُبيّن الحزن الذي أصاب سيدنا أبي بكر، والحزن غير الخوف؛ لذا نجد التعبير والأسلوب القرآني البديع يُشير إلى دلالة الحزن الذي أصاب سيدنا رسول الله وصاحبه بسبب ما أصابهم من ترك للوطن وبُعد عن الأهل، ومفارقة للأصحاب والأحباب؛ وهنا نُدرك أن الحزن على ما كان في الماضي وما حدث فيه، والخوف متعلق بالمستقبل والزمن القادم، وهذا يدل على مدى حب وتعلق وإخلاص سيدنا رسول الله وصاحبه بوطنهم وأرضهم، فهذا الحزن يُظهر الحب الشديد على ما فات، والألم المتدفّق لما أصابهم وما حلّ بهم، وكما كان هذا الحال مع الأنبياء والمصلحين، في كثير من آيات القرآن الكريم، كما في قوله سبحانه:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا}(٢)؛ لأنّهم يعلمون أنّ الإخراج من الأرض من أشدّ الأمور على النفس لحبهّم الشديد للوطن؛ وبذا يجب على كل إنسان أن يخلص لوطنه، ويحبه ويعمل من أجل رفعته ونهضته كما فعل الأنبياء والمرسلون والصالحون من قبل.

وواجب على أفراد الأمة أن تحمي أوطانها وتُخلص لها بأن تحافظ عليها، وتُقاتل في سبيلها، وتدفع عنها كلّ من يريد بها أو لها السوء والضرر، لا أن يتخلى الإنسان عن وطنه كما فعل المنافقون، فقد صوّر لنا القرآن الكريم حال المنافقين

(١) سورة التوبة:٤٠.
(٢) سورة إبراهيم:١٣.

لدينهم وأوطانهم حينما داهمهم أعداء الوطن في قوله سبحانه:{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}(١).

فهذه الآية تُشير إلى المنافقين الذين تركوا سيدنا النبيّ-ﷺ- ورجعوا من القتال، متعللين أنهم لا يعلمون القتال، وهم يريدون إضعاف شوكة المسلمين، ويريدون أن يدب اليأس والخوف في قلوب المؤمنين(٢)، وهذا حال المنافقين دائما، لا يخلصون لدين ولا وطن، ولا يبالون إلا بأنفسهم.

ثانيا: الدعاء للأوطان بالخير والأمان لكل من فيها.

صوّر لنا القرآن الكريم مكانة الوطن في حياة سيدنا إبراهيم-عليه السلام- في سورتي البقرة وإبراهيم، حيث قال سبحانه:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا }، فالحق سبحانه أخبر أن أول ما قام به سيدنا إبراهيم بعد أن فارق ابنه وزوجه في الصحراء، في أرض لا نبت فيها ولا زرع ولا ماء، تُحيطهم الرمال، وتكسوهم الشمس بلهيبها وحرارتها التي تذيب الجبال، وطعامهما لا يسد رمق الأطفال، ففي هذا المشهد العجيب والمنظر العصيب نجد أن سيدنا إبراهيم-عليه السلام- لا يلجأ إلى الله بالدعاء لزوجه أو ولده الصغير فحسب، وإنّما دعا للوطن الذي تركهم فيه، للأرض-التي سيعيشون عليها- بالأمن والأمان؛ لأن الحفاظ على أمن للبلاد-الوطن- هو حفاظ عام لمن يعيش على أرضه وتحت سمائه، والأمن له أمن لكل من فيه، والدعاء له دعاء لكل من فيه، والخير له خير لمن فيه، وكان هذا أول ما نتعلمه من سيدنا إبراهيم-عليه السلام-، أن الدعاء للوطن أولى الأولويات، وأهمّ الواجبات إذا ضاقت الأرض بما رحبت، فسيدنا إبراهيم يلجأ لربه بالدعاء للوطن

(١) سورة آل عمران:١٦٧
(٢) ينظر تفسير البيضاوي:٤٧/٢.

والأرض باعتبار أن الوطن بالنسبة لهم هو الحياة وبدونه فلا حياة؛ ليشعرنا بقيمة الحفاظ على الأرض والبلد التي نعيش عليها، ونتغذّى من خيراتها وثرواتها.

كذا يتضح من خلال آيات القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم-عليه السلام- في دعائه لم يخص بالخير سيدنا إسماعيل وأمه فقط، وإنما جعله عاما لكل الناس من آمن ومن لم يؤمن(١)، لأن الأمن لا يتحقق للبعض دون البعض، ثم عقّب بعضه بالرزق وسعة الخير ووفرته، وبهذا ندرك أن الوطن يجب علينا تجاهه الدعاء والالتجاء إلى الله أن يحفظه من شر الأعداء والسفهاء.

ثالثا: العمل على عدم الفرقة أو التنازع والشقاق بين أبناء الوطن.

ظلّ النبيّ -ﷺ- في مكّة يدعو إلى دين الله عز وجل دون أن يخرق قوانين أو أسس المجتمع المكّي، أو يخالف العادات والتقاليد والأعراف السائدة مدّة مكثه في مكّة، بل ظلّ ينادي إلى عبادة الله وحده دون أن يأمر بقتل أو قتال، أو شقاق أو نزاع؛ من أجل أن يوحّد الكلمة، بل كان يأمر الصحابة بالصبر والتحمل، وعدم العدوان أو مجرد ردّه على أهله -مكّة- حتى لا تنقسم الكلمة، وتختلف الأمة، طمعًا في أن يسلموا ويؤمنوا بالله -تعالى-، حتى أذن الله بالهجرة.

ومن هذا ندرك أن الاتفاق والاعتصام وعدم الشقاق واجب شرعي بين أبناء الوطن، قال سبحانه:{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}(٢)، فالاتفاق والاعتصام وعدم الفرقة واجبنا تجاه الأوطان؛ لأن الاختلاف يؤديّ إلى تمزيقها وهدم ثرواتها، وقد جسّد هذا المعنى النبي -ﷺ- حينما لم يأمر بالقتال في مكّة كي لا يتمزق الوطن ويقتل أبناؤه بعضهم بعضا، قال سبحانه:{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) وقد بينت هذا في المطلب الأول من هذا البحث، عند الحديث عن الوطن في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام.
(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[1]، وقال سبحانه:{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[2]، فهذا هو منهج القرآن ودعوته للوحدة والاعتصام وعدم الفرقة والاختلاف في آياته وتشريعاته، قال ابن كثير في تفسيره:" أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ"[3]، وكان هذا هو هدي النبي-ﷺ- يجمع الأمة، ويوحّد الكلمة، ويؤلف القلوب، ويجمع الشتات، ويُزيل الاختلاف، ويُوفّق بين الآراء، وقد قال -ﷺ-:[مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى][4]، وهذا هو الأصل بين أبناء الوطن أن يتعاونوا، ويتعاضدوا، ولا يختلفوا، بل تجمعهم مصلحة وطنهم جميعا.

رابعا: وجوب حماية الأوطان والتضحية من أجلها.

ترشدنا آيات القرآن الكريم إلى أن حماية الأوطان من الواجبات الشرعية، فينبغي على كل إنسان يعيش في وطنه أن يحميه ويحفظه من أعدائه، ويعمل ليلاً نهارا على رفعته وحمايته، وأن يبذُل ما يستطيع من أجل رفعة هذه البلاد والأوطان، وقد ضرب لنا النبي-ﷺ- المثل الأعلى في التضحية من أجل الوطن، فقد ترك مكّة مُكرها ولم يأمر أصحابه وأعوانه بقتال فيها، أو محاربة المشركين، وصدّ عدوانهم؛ حفاظا على الوطن، وهم الذين مكروا به وآذوه وحاربوه، ومع هذا لم يبادل قتلهم بقتال، ولا ظلمهم له باعتداء، ولا حربهم له بافتتان، وإنما قابل

(١) سورة الأنفال:٤٦.
(٢) سورة آل عمران:١٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير:٣٢٨/٣.
(٤) أخرجه مسلم:١٩٩٩/٤، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: (٢٥٨٦)، والبخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٨/ ١٠) برقم: (٦٠١١).

السيء بالحسن، والظلم بالصبر، والتعدي بالحلم والصفح، كل هذا من أجل أن يحمي وطنه من الفتنة والفرقة، قال سبحانه: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(١)، فمكروا به وخانوه، ودبّروا لقتله وأكرهوه على الخروج من وطنه، ومع هذا لم يُبادر إلا بالتحمّل والتضحية من أجل الوطن، فلم ينتقم لنفسه-ﷺ- وإنما قابلهم بالعفو والحلم والصفح من أجل الحفاظ على -وطنه- مكّة ومقدراتها، من أجل الوطن الذي يسكن فؤاده، ويملأ كيانه، ويجسد النبي -ﷺ- المعنى الحقيقي للتضحية من أجل الوطن في فتح مكّة إذ يقابلهم النبي-ﷺ- بعد كل ما فعله أهل مكّة بقوله لهم:" يا أهل مكة ! ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا أخ كريم و ابن أخ كريم ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"(٢).

كذا يجسّد لنا سيدنا يوسف -عليه السلام- هذا المعنى في رؤيا الملك، فقد سُجن ظلما، ووضع في ظُلمات الجبّ قهرا وعدوانا دون أن يرتكب ذنبًا، ومع هذا يخدم وطنه وينفعه ويحفظ مقدراته، ويُحافظ على خيراته بتقديم النصح والإرشاد، وهم الذين لم يُقدّموا له إلا الظلم والعدوان، والبطش والسجن والحرمان، وقد اتّضح هذا المعنى في تأويل رؤيا الملك من سيدنا يوسف -عليه السلام- فقال سبحانه:{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ}(٣)، فنجد أنه لم يفكر أو يتردد، أو يتأخر في تأويل الرؤيا، كما أنّه لم يساومهم على التأويل بالخروج من السجن، أو لم يتّخذ التأويل وسيلةً للوصول إلى الإفراج التام، أو أن يتبوأ منصبًا، كل هذا لم يرد في ذهن سيدنا يوسف -عليه السلام- وإنما بادر بالتأويل المطلق والتام دون سابق شرط أو

(١) سورة الأنفال:٣٠.
(٢) السيرة النبوية لابن حبان:٣١٥/١، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض:١١٠/١.
(٣) سورة يوسف:٤٧.

مُساومة لهم، فلم يقل سأرشدكم مقابل الإخراج من السجن، أو سأخبركم مقابل مصلحة شخصية، وإنما قدّم النصح والإرشاد وهو مازال في ظلمات السجن، وبهذا يتضح أن سيدنا يوسف–عليه السلام– قدّم مصلحة الوطن على نفسه، وقدّم التضحية من أجل وطنه على التضحية بهم من أجل نفسه.

خامسا: العمل من أجل تقدم الوطن ورفعته وإن كانوا على خلاف الدين.

إن الناظر في كتاب الله– تعالى– يدرك أنّ الوطن له مكانة ومنزلة كبيرة، ولقد حثّنا القرآن الكريم على العمل والاجتهاد بصورة عامة، ومن أجل الوطن ورفعته بصورة خاصة، وقد أبان هذه المنزلة سيدنا يوسف –عليه السلام–، فهو الذي سُجن، وظلّ حبيسا ومظلوما، إلا أنّه حينما احتاج إليه الوطن، واحتاج الناس–غير المؤمنين به– لعلمه ومعرفته، لم يمنعها عنهم، بل هو الذي طلب أن يخدمهم، فبعد أن خرج من السجن كان من الممكن أن يترك المكان ويخرج بعيدا عن هؤلاء القوم الذين ظلموه، إلا أنّه بعد خروجه من السجن طلب من ملك مصر أن يُسند إليه العمل الذي يستطيع أن يخدم به أهل مصر–وطنه الذي يعيش فيه–، وأن يساعدهم على مرور تلك المرحلة الصعبة؛ لأنه الأجدر والأفضل لتلك المهمّة الشاقة، بل هو الذي سعى إليها؛ لينقذهم مما لا طاقة لهم به، فقال ربنا سبحانه حكاية عنه عليه السلام:{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}(١)، وبهذه نتعلم أنه من الواجب علينا أن نسارع إلى خدمة الوطن، وأن نعمل من أجل رفعته وتقدمه وإن حدث لنا نوع من الظلم ممن نعيش معهم، أو أساء أحدهم إلينا إلا أنه يجب متى استطاع الإنسان خدمة وطنه وأهله أن يفعل مهما كلفه الأمر، بل هو الذي يجب أن يسارع ليساعد وطنه وأهله، لا أن ينتظر حتى يُطلب منه أن يساعد وطنه وأهله.

كما ترشدنا الآيات إلى أنّ نسارع إلى خدمة الأوطان ولو كان أهلها مختلفين في العقيدة، كما فعل سيدنا يوسف –عليه السلام– فهو لم يقل إن هذه الدولة كافرة ولا يجوز أن أخدمهم –كما يفعل بعض الجهلاء من ينتسبون إلى الدين زورا وبهتانا، بل طلب

(١) سورة يوسف:٥٥.

سيدنا يوسف خدمتهم، والعمل تحت راية ملك مصر غير المؤمن-في هذا الوقت- بما جاء به سيدنا يوسف-عليه السلام، وعمله هذا يخدم من هم على خلاف دينه، لأن ملك مصر وأهلها لم يكونوا على دين سيدنا يوسف-عليه السلام-، ولم يكن أحدّ منهم يدين بما يدين به سيدنا يوسف-عليه السلام- من الاعتراف بالله الواحد الأحد، ومع هذا طلب العمل وسعى إليه من أجل رفعة الوطن وتقدّمه، وهم على خلاف ما يدين به سيدنا يوسف -عليه السلام-(١)

سادسا: عدم خيانة الوطن وإفشاء أسراره للأعداء.

حذرنا القرآن الكريم من الخيانة بكل أشكالها وأنواعها، ومن الواجب علينا عدم خيانة الأفراد والكيانات، ومما أوجب علينا القرآن حفظه وحفظ أمانته وأسراره الأوطان، فهي مما يجب علينا أن نحافظ على أسرارها، ولا نفشيها للأعداء، ولقد أوضح ربنا هذا في قوله:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}(٢)، فهذه الآية ورد في سبب نزولها أن أحد أصحاب سيدنا رسول الله-ﷺ- وهو أبو لبابة الأنصاري قد أفشى سراً لرسول الله، وأذاع أمرا كتمه سيدنا رسول الله لأعدائه، وأخرج أسرار الوطن لأعداء الوطن، فأنزل الله هذه الآية، فقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية، أن النبيّ-صلى الله عليه وسلم- حاصر يهود بني قريظة فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من اليهود على أن يسيروا الى إخوانهم في أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحًا لهم؛ لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه إليهم فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى من حكم سعد فينا؟

(١) ينظر: حقوق المواطنة وواجباتها في ضوء الكتاب والسنة:ص٩، د. حسن السيد خطاب، كلية الآداب جامعة المنوفية.
(٢) سورة الأنفال:٢٧.

فأشار أبو لبابة بيده أنّه الذبح، فقال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أن قد خنت الله والرسول، فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتّى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا حتّى خرّ مغميّا عليه ثمّ تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تاب الله عليك، قال: والله لا أحلّ نفسي حتّى يكون رسول الله -ﷺ- هو الذي يحلّني فجاءه فحله بيده(١).

ومن هذا يتضح أن أسرار الأوطان من الأمانات التي يجب شرعا أن نحافظ عليها، ولا نخرجها لأعداء الوطن، أمّا ما يحدث من بعض الناس من إفشاء الأسرار ونشرها لأعداء الأوطان من أجل مكاسب ماليه، أو مناصب زائلة، أو أغراض ومصالح شخصية فهذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم، وحذرنا منه الحبيب المصطفى ﷺ.

كما ورد التحذير من خيانة الأوطان بموالاة أعدائه، وهو نوع من الخيانة المنهي عنها في كتاب الله تعالى، كما أنه نوع من نكران الجميل للوطن وأهله، فموالاة أعداء الأوطان حذّرنا منها ربنا في قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}(٢).

فالحق سبحانه يُشير إلى النهي عن موالاة أعداء الوطن، وتقديم مصلحتهم ومودتهم على مصلحة الوطن وأهله، فالله ينهانا عن هذا الأمر بالكليّة، والحديث هنا عن موالاة الأعداء من الكفار الذين بيننا وبينهم عداوة وحروب وقتال، أمّا من لا

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي:٣٤٦/٤، والمحرر الوجيز لابن عطية:٥١٧/٢.
(٢) سورة الممتحنة:١.

حرب ولا عداء بيننا وبينهم فلا حرج في مودتهم وبرّهم ما لم تضرّ هذه المودة بالوطن وبمن فيه، مصداقا لقوله سبحانه:{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}(١).

سابعا: المساواة بين جميع أفراد الوطن وعدم التمييز بينهم.

إن من حقوق الوطن وواجباته علينا أن نعامل أبناء الأوطان بأفضل معاملة؛ لا نفرق بين أحدٍ منهم، ولا نجعل بين أبناء الوطن فرقة واختلافًا، أو تمييزًا لأحد على غيره، إنّ جمع كلمة أبناء الوطن، والمساواة والعدل بين جميع أفراده من الواجبات والحقوق التي بينها القرآن الكريم، وجسّدها النبي -ﷺ- بالفعل في المدينة المنورة حينما اتخذها وطنًا وسكنًا، ففي كتاب الله تعالى نجد أن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- حينما ترك ولده وزوجه في الصحراء دعا لمكّة وأهلها، ولم يدع لزوجته وولده فقط، بل جعل الدعاء عاماً لكل من في مكّة مؤمنها وغيره، فقال سبحانه:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا}(٢)، وقد بيّنتُ هذا في بداية البحث، بأنّ الدعاء لكل من في هذا المكان، وليس لأحد دون غيره، ويؤكد هذا المعني دعاء سيدنا إبراهيم- عليه السلام- في قوله:{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ** يَشْكُرُونَ}(٣)، فالدعاء عام لكل الناس بأن يرزقهم الله من الثمرات، وكذا الدعاء واللجوء لله بأنّ من سيأتي إليهم عامًا لكل الناس دون تخصيص، ومعلوم أنّ من سيفد عليهم في ذلك الوقت ليس مؤمنًا، وليس على دين إبراهيم-عليه السلام-، إلا أنّ سيدنا إبراهيم-عليه السلام- لم يُخصص دعوته للمؤمنين دون غيرهم، لأن الكل سواء في وطنه وأرضه، لا يُفرّق بين أحد، ولا يتم التمييز.

(١) سورة الممتحنة :٨.
(٢) ينظر: المطلب الأول من المبحث الثاني في هذا البحث، وفيه تفصيل للمسألة.
(٣) سورة إبراهيم:٣٧.

وجسّد هذا المعنى حبيبنا المصطفى -ﷺ- وهو الذي أعدّ ووضع أول دستور عالمي، يحافظ على أفراد الوطن جميعًا، لا يفرق بين مؤمن بالله وغيره، ولا بين مسلم وغير مسلم، بل جعل أبناء الوطن أمام أنفسهم وبعضهم البعض سواء، لا تمييز ولا تفريق، ولا فضل لأحد على غيره تجاه الوطن ما دام كلّ إنسان يُؤدي ما عليه من واجبات، فنجده -ﷺ- يضع وثيقة المدينة، التي هي دستور العدل، وقانون المساواة، وميزان الحق بين أبناء الوطن جميعًا، وثيقة المدينة التي نص فيها سيدنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- على بنودٍ إلزامية تحفظ كرامة غير المسلمين كما تحفظ كرامة المسلمين، والتي كان من بنودها، أنّ الجميع سواء، المسلمون وغيرهم تجاه الوطن وواجباته وحقوقه سواء، وممّا قاله فيها سيدنا رسول الله-ﷺ- ممّا يدلّ على عدم التفرقة أو التمييز:[إنهم أمة واحدة من دون الناس، وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النُّصْحَ وَالنّصِيحَةَ، وَالْبِرِّ دُونَ الْإِثْمِ، وإن النصر للمظلوم][1]، وبالتأمل لهذه البنود نجد أنّها ترسخ للوحدة الوطنية بمفهومها الحقيقي، ترسخ للأخوة الوطنية، ترسخ للمحبة الوطنية، ترسخ للألفة والمناصرة والنصح والتعاون لكل أبناء الوطن مالم يظلم أحدهما غيره، أو يخنه، أو ينصر عليه عدوه، وبهذا يتضح أن الإسلام لم يفرق بين أبناء الوطن، وإنما جمعهم على المودة والمحبة والمناصرة والمُناصحة دون تمييز أو تفرقة.

(١) يراجع بنود الوثيقة من خلال : السيرة النبوية لابن هشام:٥٠٣/١، باب: كِتَابُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمُوَادَعَةُ يَهُودَ، والسيرة النبوية لابن كثير:٣٢٢/٢.

الخاتمة

أولا : نتائج البحث

١- اهتم القرآن الكريم اهتمامًا بالغًا بالوطن، فلم يُذكر الوطن صراحة في أي موضع من المواضع، وإنما عُبّر عنه بلازم من لوازمه مثل: الدار، والأرض، والبلد...إلخ وذلك إشارة لإنزاله منزلة السكن الحقيقي، والمأوى الذي لا عيش للإنسان بدونه؛ فكما لا يستطيع الإنسان العيش بلا مسكن يأويه، فلا يمكن أن يعيش الإنسان بلا وطن يحويه.

٢- الوطن في حياة الأنبياء كان في مقدمة أولوياتهم، فهذا سيدنا إبراهيم-عليه السلام- يدعو لمكة بالأمن والأمان وسعة الرزق كي تكون وطنًا وسكنا آمنا لأهله، ولكل من فيها.

٣- القرآن الكريم لم يفرّق بين أبناء الوطن الواحد في الحقوق والواجبات تجاه الأوطان وإن اختلفت الشرائع، فلم يفرّق بين كفر وإيمان تجاه الوطن ومسئولياته، فقد دعا سيدنا إبراهيم-عليه السلام- لمكّة وكلِّ من فيها بقوله سبحانه:{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}، دون تفرقة بين كفر وإيمان، ويؤكد هذا المعنى أنّ سيدنا إبراهيم حينما دعا ربه بأن يجعل الناس تأتيهم من كل صوب وحدب، جعل دعوته عامة لكل الناس، ومعلوم أنّ من سيأتيهم يختلف دينه عنهم ومع هذا دعا لهم جمعًا دون تفرقة، فقال سبحانه:{ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [إبراهيم:٣٧] وفي هذا دليل على أنّ الدعوة للوطن ولكل من فيه ومن سيأتيه، فالكل على أرضه ووطنه سواء تجاه الوطن.

٤- القرآن الكريم تحدث عن قيمة الأوطان بأنواعه: وطن الولادة، ووطن الإقامة، ووطن السكن، ولكل منهما حقوق وواجبات.

٥- أوضح القرآن الكريم قدر مصر ومكانتها في كثير من آياته تصريحًا وتلميحًا، فوصفها بالبلد المباركة، والمقدسة، والآمنة، تأوي كلَّ من قصدها، ويكثر

خيرها لكل من عليها بلا فرقة أو تفريق بين أهلها، وقد اتضح هذا في قصتي سيدنا يوسف وموسى عليهما السلام.

٦- يجب علينا تجاه أوطاننا حمايتها، وحفظ موارها، والدعاء لها، والعمل على رفعتها وتقدمها، وحبها، والتضحية من أجلها، ورد كيد أعدائها.

٧- حب الأوطان ليس وليد العصر الإسلامي، وإنما كان الوطن -قديما وحديثا- هو الملاذ الأمن، والحياة المستقرة، والعيشة المطمئنة، لذا كان أول ما يفكر فيه المعتدون والمستعمرون هدم الأوطان وتراثها، ومقدراتها وثرواتها وخيراتها، لكي تتغير معالم الأوطان فلا يبق منها ولا لها أثر.

٨- الأرض كلها وطن للنبيّ -صلى الله عليه وسلم- -باعتبار عموم دعوته- ، إلا أنّ لتعلقه بالوطن الخاص -موطن ولادته مكّة- مكانا خاصا ظلّ محفورا، ومحفوفا في قلبه وعلقه، مع ما جعله الله له من بلدان وأماكن رفعت قدره، وعلمت منزلته وشرفه، إلا أن الوطن الأم لسيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مكة- لم يعدله في قلبه مكان آخر، وهذا تشريف وتكريم للبلد الحرام، زادها الله تشريفاً وتعظيمًا.

ثانيا: التوصيات:

- يستحب للباحثين والمهتمين بالدراسات القرآنية، الاهتمام بالأبحاث المتعلقة ببيان قيمة الأوطان وأهميتها، وبيان الإعجاز اللغوي، والثراء البياني والبلاغي من خلال لغة القرآن الكريم.

- يستحب للباحثين ألا يقفوا عند ظواهر النصوص الشرعية، وبخاصة الآيات القرآنية ، بل يجب أن يُنزلوها على الواقع المعاصر؛ لأنه كتاب الله الخالد، ودستوره الموافق لكل زمان ومكان.

- يجب على الباحثين التصدّي لأفكار الجماعات المتطرفة، وبيان زيف أفكارهم، ومعتقداتهم الهدّامة، ومنها تمزيق المجتمعات والأوطان، وتهميش دور الوطن وقيمته في نفوس البشر على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري، تحقيق وتعليق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣- أخبار مكة وما جاء فيها من أثار، محمد بن عبد الله بن أحمد بن الأزرق، المعروف بالأزرقي، المحقق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر – بيروت.

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الناشر الدار التونسية – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٦- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

٧- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٨- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر- القاهرة، الطبعة: الأولى.

٩- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبو حاتم التميمي، الناشر: دار الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٧ هـ.

١٠- السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي،،تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة، بيروت – لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

١١- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر دار الجيل، بيروت، سنة النشر ١٤١١ه.

١٢- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

١٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد، أبو القاسم جار الله الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

١٤- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق الثعلبي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

١٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة : الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٦- الموسوعة الفقهية الكويتية، الناشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت.

١٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٨ هـ.

١٨- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزبيدي، دار الهداية

١٩- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

٢٠- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.

٢١- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، الناشر، دار إحياء التراث العربي.

٢٢- حقوق المواطنة وواجباتها في ضوء الكتاب والسنة، د/ حسن السيد خطاب، كلية الآداب جامعة المنوفية.

٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٤- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، الناشر: ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢٥- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٢٦- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٧- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٨- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

٢٩- لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٣٠- لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

٣١- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

٣٢- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٣٣- مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة : الأولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م .